المحاضرة العاشرة

قضية الصدق ونماذج نصية من المشرق والأندلس والمغرب العربي :

المقصود بالصدق هو الصدق في التعبير الأدبي، والصدق في الأحاسيس المعبر عنها، وتعتبر قضية الصدق من قضايا النقد الأدبي الهامة التي تعنى بفن من القول خاص ودقيق.

- موقف النقاد من قضية الصدق و الكذب :

قال القدماء إن أعذب الشعر أكذبه أو أعذب الشعر أصدقه ، وذلك أنه إن وجد في الشعر صور فنية مبتكرة ومتعددة الإيحاءات، كان الشعر أكثر تأثيرا في المتلقي ولو خالفت صوره الواقع، فأصحاب هذا الرأي يرون أن الكذب ميدانه التخييل والتمثيل.

قال أبو هلال العسكري: " إن الشعر أكثره قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة والنعوت الخارجة عن العادات .... لا سيما الشعر الجاهلي وليس يراد منه إلا حسن اللفظ وجودة المعنى".

ومثال ذلك قول البحتري:

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ منطق ما نوعه وما سببه

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

ينفي البحتري هنا، حاجة الشعر إلى الفلسفة و المنطق ، إلا أنه عاطفة و إحساس ومشاعر، وقد استشهد في هذا بشعر امرئ القيس.

إن وجدالصدق في التعبير، فإنه لامحالة يمج المبالغة الممقوتة لأنها بغيضة إلى النفس، ومطية للكذب، يخرج الشاعر فيها عن حدود الطبيعة ، ويتجاوز بها إلى المستحيل الذي لا يقع ضمن الخيال الممكن ، مثال ذلك قول بشار مولى مضر:

وإذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو مطرث دما

لقد أفرط الشاعر في الافتخار بنفسه وبقبيلته، وهي قبيلة مضر، هذه القبيلة التي إن غضبت حسب رأيه، فإن لغضبتها تأثير قوي على أعدائها في كل جهة، بل حتى أنها تهتك حجاب الشمس الذي هو ضوؤها، بمعنى أن غبار الحرب يحجب ضوء الشمس وهذه مبالغة في الفخر الذي يجافي الواقع، وقد اعتبرهاالبعض مبالغة بغيضة إلى النفس ممقوتة، فالغلو والإسراف يخرج اللفظ عن الصدق لأنه يخالف الواقع، ويدخله في الكذب الذي يفسده،والكذب ضرب من ضروب الخيال، ولكنه عندما يصل الخيال إلى مرحلة ما يتجاوز فيها الحد المعقول عادة وعقلا فإنه يتحول إلى إغراق وغلو، وقد كانت هذه المبالغات الممقوتة سببا في تحري الصدق، وهذا ما ذكره حسان بن ثابت في قوله:

وإنما الشعر لبُّ المرء يعرضُه على المجالس إن كَيساً وإن حُمقَا

وإنّ أشعـــر بيت أنـــت قائلـــه بيت يقـال، إذا أنشدتـه، صَـدقا

فالمعيار النقدي الذي اعتمده الشاعر في قوله هذا هو معيار الصدق، وهو معيار نقدي يقاس به جودة الأدب أو رداءته، لأن معيار الصدق يجعل الشاعر يعبر عن الأشياء، لا كما هي، ولكن كما تدركها حواسه، فيحدث الأثر الفني في نفس المتلقي ويؤثر في عواطفه. فالصدق المنشود، هو صدق التأثير على نفس المتلقي، وهو صدق الواقع بأجنحة الخيال المطلوب والمعقول .

ومن أنصار أعذب الشعر أكذبه ، ابن الأثير حيث جعل الكذب درجات مستحسن وغير مستحسن، وابن سنان الخفاجي الذي ألزم الشاعر أن يختار كلمات تقربّه من الحقيقة من مثل (كاد) وما جرى معناها، مثال ذلك قول البحتري:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد إن يتكلما

ومن المهم الإشارة إلى أن طبيعة لغة الشعر غير لغة النثر؛ فالشعر يقوم على المبالغات والمجازات والاستعارات التي تعطي الشعر حلاوته وروحه وغموضه وأثره في المشاعر، وهذا ما أكده الناقد الجرجاني بقوله: "... ومن قال أعذب الشعر أكذبه ذهب إلى أن الصنعة إنما يُمدّ باغها وتنشر شعاعها ويتسع ميدائها وتتفرع أفنائها، حيث يعتمد الاتساع والتخييل، ويدعي الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم، وهذا يجد الشاعر فيه سبيلا إلى أن يبدع ويزيد في اختراع الصور، انظر سحر الشعر كيف يجعل من القبح حسنا قاتل أبو الحسن الأنباري في رثاء أبي طاهر بن بقية (وزير عز الدولة) أمر بصلبه عضد الدولة:

علوّ في الحياة وفي الممات لحقٌ أنت إحدى المعجزات

كأنّ الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات

كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة

مددت يديك نحوهم احتفاء كمدّهما إليهم بالهبات

كيف استطاع الشاعر أن يقلب معاني الإهانة إلى معاني شرف وإجلال؟".

- **أنواع الصدق:**

1. **الصدق الخلقي:** وهو نقل الحقيقة الأخلاقية كما هي، ويظهر في المدح والهجاء وغيرها، ومثال ذلك رأي عمر رضي الله عنه في زهير، الذي قال عنه بأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وبما عرف عنه.

2. **الصدق عن ذات النفس:** بكشف المعاني المختلجة في النفس، والتصريح بما ينكتم فيها، والاعتراف بالحق في جميع أحوالها، وهو التعبير عن تجربة الشاعر الذاتية، وهو قريب من الصدق الفني.

3. **الصدق التصويري:** صدق إيراد التشبيه، كأن نقول شبهت العرب الشيء بمثله تشبيها صادقا، أي على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتها.

4. **الصدق الفني:** أصالة الكاتب في تعبيره ورجوعه فيه إلى ذات نفسه لا إلى العبارات الذاتية الموروثة.

5. **الصدق التاريخي:** الصدق في نقل الأحداث والأخبار والحقائق التاريخية وإظهار الحقيقة كما هي، وعدم المبالغة ومجاوزة الحد.

1- ابن طباطبا وقضية الصدق :

يرى ابن طباطبا أن الصدق أهم عناصر الشعر، فهو صنو الاعتدال الجمالي في ميدان الفهم، الذي يأنس بالكلام الصواب الحق، وينفر من الكلام الخاطئ الباطل، والصدق عنده الذي يعنيه هو "السلامة التامة من (الخطإ) في اللفظ و (الجور) في التركيب و(البطلان) في المعنى، أي هو أن يتمتع الشعر بالاعتدال بين هذه العناصر جميعا. فإذا هو بسبب هذا الصدق شيء جميل، لأن (ميزان الصواب) قبل ما فيه من لفظ ومعنى وتركيب".

ولذلك جاءت لفظة الصدق عند ابن طباطبا متباينة الدلالة، ومن هذه الدلالات:

1. **الصدق عن النفس:** يكشف خباياها وما يختلج داخلها من معاني، وأن تعترف بما تكتمه. وهذا يمكن تسميته ب "الصدق الفني" وهو إخلاص المبدع في التعبير عن تجربته الذاتية التي يعيشها بصدق.

2. **صدق التجربة الإنسانية:** ويتمثل في قبول الفهم للحكمة، لصدق القول فيها وما أتت به التجارب منها.

3. **الصدق التاريخي:** ويعني بها صدق اقتصاص الخبر أو حكاية الكلام. وهنا يجيز ابن طباطبا للشاعر أن يزيد أو ينقص عند الاضطرار، ولكن الزيادة تكون يسيرة.

4. **الصدق الأخلاقي:** ويتمثل في نقل الحقيقة الأخلاقية كما هي. ويظهر ذلك في المدح والهجاء وفي غيرهما من الفنون، كثناء عمر رضي الله عنه على زهير، في أنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه.

5. **الصدق التصويري:** وهو ما يدعوه ابن طباطبا بـ " صدق التشبيه"، وهو أن يحرص الشاعر على تعمد الصدق والتوفيق في تشبيهاته.

وأصدق التشبيهات عند ابن طباطبا، ما كان كل شبه بصاحبه مثل صاحبه، ويكون صاحبه مثله مشتبها به صورة ومعنى. وللتشابه عنده أنحاء منها: الصورة والهيئة والمعنى والحركة واللون والصوت. وكلما زادت هذه العناصر كان التشبيه أقوى وتأكد الصدق فيه.

وكمثال على التشبيه الذي اجتمعت فيه عناصر التشبيه هذه قول ذي الرمّة:

ما بال عينك منها الدمع ينسكب كأنه من كلى مفريةٍ سربُ

ومن هنا يمكن القول بأن الشعر يكون جميلا ومعتدلا ومؤثّرا، متى توفرت فيه أنواع الصدق، وتوفر للشاعر صدق التجربة، وإلا اعترى الشعر النقص والعيب، ولذلك فقد عاب ابن طباطبا المثقّب العبدي قوله الذي يتكلم فيه على لسان ناقته :

تقول وقد درأت لها وضيني أهذا دينه أبداً ودِيني

أكل الدّهر حل وارتحال أما يبقي عليَّ ولا يقيني

عاب ابن طباطبا هذا القول لأن كلام المثقّف عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة.

كما أعاب على شاعر آخر قوله الذي رأى فيه إيماء مشكلا وملتبسا وهو:

أوْمأتْ بكفّيها من الهودج لولاك هذا العام لم أحججِ

أنت إلى مكة أخرجتني حبا ولولا أنني لم أخرُج

فرأى في هذا الكلام إماء مفرطا لا يتحمل كل هذه المعاني.

2- قدامة بن جعفر ورأيه في قضية الصدق الفني:

حسب قدامة بن جعفر فإن الصدق الفني، هو التعبير عن أصالة الشاعر ورجوعه إلى خبايا نفسه، ويرى أن الصدق لا يتحقق إلا إذا نأى الشاعر بشعره عن التناقض؛ الذي يظهر في مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين، كأن يصف شيئا وصفا حسنا ثم يذمه بعد ذلك ذما حسنا، غير منكر له ولا معيب من فعله إذا أحسن المدح أو الذم، بل إن ذلك عنده يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها.

وفي معرض حديث قدامة عن الصدق الفني، كان يحكم به على الشعراء بالاستحسان والجودة. ويرى أن الشاعر المجيد هو الذي يلتزم الصدق في وصف ما يشعر به. يقول في هذا الصدد: إن "المجيد من الشعراء هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو دائر أنه يجد أو وجد مثله حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر، فمن ذلك قول أبي صخر الهذلي، فإنه يصف ما رأي أن كل متعلق بمودة يجد مثله، وهو:

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمرُ

لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجرُ

فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت لا عرف لدي ولا نكرُ

ويمنعني من بعض إنكار ظلمها إذا ظلمت يوما وإن كان لها عذرُ

مخافة أني قد علمت لئن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبرُ

فوصف الشاعر لذلك هو الذي يستجاد، لا اعتقاده، إذ كان الشعر إنما هو قول، فإذا أجاد فيه القائل لم يطالب بالاعتقاد، لأنه قد يجوز أن يكون المحبون معتقدين لأضعاف ما في نفس هذا الشاعر من الوجد، فحيث لم يذكروه، وإنما اعتقدوه فقط، لم يدخلوا في باب من يوصف بالشعر".

3- قضية الصدق والكذب في الشعر عند عبد القاهر الجرجاني:

في سياق مناقشة قضية المعاني، وازن عبد القاهر الجرجاني بين المعاني العقلية و التخييلية، فوصف التخييل بالخداع والسحر والإيهام، مما يطرح سؤالا هاما يتصل بالقيمة "الأخلاقية" للصور الشعرية وطبيعتها المرجعية، بمعنى هل ترتهن صياغة موضوع تخييلي بالضرورة إلى الانزياح عن الواقع المادي وخرق نظمه وعلاقاته؟ أم أنه يمكن أن يتشكل بالنقل الأمين والحرفي لظواهره ومعطياته؟. وبالتالي هل المعاني والأحكام التي ينطوي عليها التخييل تكون دائما كاذبة؟ أم أنها تكون صادقة؟ أو تتراوح بين الكذب والصدق؟.

وتتميز مقاربة عبد القاهر لقضية الصدق، بربطها بموضوع التخييل الشعري، ونظر إليها من خلال طبيعتها الدلالية وفاعليته الجمالية، ولا نعلم أحدا من البلاغيين والنقاد سبقه إلى ذلك، هذا إذا استثنينا جهود الفلاسفة المسلمين التي أخذت منحى مغايرا للمنحى الذي ميّز مقاربته للقضية، وأول ما يستهل به معالجته لهذه القضية قول البحتري:

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يكفي صدقه عن كذبه

وقد علق عليه بقوله: " أراد كلفتمونا أن نجري مقاييس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لا ندعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به، ويلجأ إلى موجبة، ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد، وإياه عمد، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظا من الفضل والسؤدد ليس له، ويبلغه بالصفة حظا من التعظيم ليس هو أهله، وأن يجاوز به من الإكثار محله، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية، والقوانين العقلية، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به، والكشف عن قدره وخسته، ورفعته أو ضعته، ومعرفة محله ومرتبته".

يستعيد عبد القاهر هنا تصوره السابق الذي أكّد فيه تعارض التخييلي والعقلي من جهة الماهية الدلالية والوظيفة التداولية، ولذا فهو يضع "مقاييس الشعر" في مقابل " الحدود المنطق" و"القول المحقق" و "براهين العقل"، ويستمد هذا التقابل مبرراته من طبيعة الوصف الشعري التي تقتضي الخروج عن المألوف والمشهور وبناء الصور على التخييل لا على المعقول، لأن الشعر يقوم كما هو الحال بالنسبة للخطابة مع اختلاف جوهري في الأسلوب والغاية على مقاييس مخادعة ومموهة تدعي تماثل موضوعين وتشاركهما في صفة أو حكم " وإن لم يكن كذلك في المعقول ومقتضيات العقول".

وإذا كان البحتري _ كما يرى عبد القاهر _ قد قصد هذا المعنى، فإنه لم يقصد الإيغال في الوصف والمجاوزة في التصوير إلى حد الادعاء الباطل، والكذب المكشوف الذي" ينحل الوضيع صفة من الرفعة هو منها عار، أو يصف الشريف بنقص وعار". بل الضرب من التخييل الذي يرفع من هو أهل للتعظيم، ويحط من قدر من هو أهل للتحقير، والذي يصوغ حكمة الجمالي بمقاييس التعليل التخييلي.

والصدق عنده ما اتصف به الشعر بهذه الصفات " فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دلّ على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى وتبعث على التقوى وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من

الخصال، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال (...) والأول أولى، لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر".

والصدق الفني الذي يتحدث عنه عبد القاهر ويفضله على" التخييل" لا علاقة له بالنقل الحرفي والتصوير المباشر للواقع العيني، ولا يهم كل المواضيع والمضامين الشعرية، بل يتصل ببعضها فقط، وخاصة النسيب والرثاء، مما يحتاج فيه الشاعر إلى أن يصف صبابته واحتراقه بفراق عشيقته أو بموت إنسان عزيز عليه، ومن ثمة فهو لا يناسب بعض الأغراض الشعرية، ويتنافى مع جوهرها الفني الذي يقوم على ادعاء صفات ومعاني غير ثابتة أصلا ولا سبيل إلى التحقق منها وخاصة غرضي المدح والهجاء اللذين يقتضيان اختلاق صور مغرقة في المبالغة والادعاء لتحسين شخصية الممدوح أو تقبيح شخصية المهجو.

4. قضية الصدق والكذب في الشعر عند حازم القرطاجني :

بالرغم من أهمية المجهود الذي قام به عبد القاهر الجرجاني لفهم الطبيعة الفنية للتخييل الشعري وإبراز خصوصيته الدلالية، إلا أنه لم يستطع أن يخلصه من الأحكام السلبية والمواقف التنقيصية التي ترسبت في ذاكرته خلال لحظات استعماله الأولى، فظل يعتبره ضربا من الخداع والتضليل، ووسيلة يحتال بها الشاعر على الوعيين الإدراكي والعقلي للمتلقي، ليوهمه بصدق الأحكام والمعاني الخيالية التي يعرضها عليه .

وقد شعر حازم القرطاجني أن عليه أن يواجه كل الظلال السيئة التي تعتور التخييل الشعري و "أن يتصدى للهجوم على المصطلح نفسه، وينفي عنه ما يتهم به، ويرد على سوء فهم المتكلمين للشعر، خاصة أولئك الذين قرنوا التخييل بالكذب وافترضوا أن القول المخيل هو القول الكاذب بالضرورة " ولذلك فقد حرص على التأكيد بأن النظر في الشعر ينبغي أن ينصبّ أساسا على الغاية الجمالية التي يسعى إلى تحقيقها، وأن يقوم على ضوء درجة نجاح الشاعر في إدماج المتلقي في السياق التخييلي لتجربته الإبداعية.

يقول في هذا المعني: "الرأي الصحيح في الشعر أن مقدماته تكون صادقة وتكون كاذبة، وليس يعد شعرا من حيث هو صدق ولا من حيث هو كذب بل من حيث هو كلام مخيل".

ويقول أيضا في السياق نفسه: "الاعتبار في الشعر إنما هو التخييل في أي مادة اتفق، لا يشترط في ذلك صدق ولا كذب، بل أيهما ائتلفت الأقاويل المخيلة منه فبالعرض، لأن صنعة الشاعر هي جودة التأليف وحسن المحاكاة، وموضوعها الألفاظ وما تدل عليه".

فالشعر باعتباره خطابا جماليا يمثل الموجودات المادية ويترجم الأحوال النفسية التي لها علاقة بالإنسان، لا تتحدد غايته الجمالية وطبيعته الفنية في نقل معطيات العالم الخارجي بصورة حرفية مطابقة لوجودها العيني، أو بصورة أخرى مغايرة لحقيقتها الموضوعية، بل المطلوب منه أولا وأخيرا أن يثير خيالات المتلقين، وأن يحرك نفوسهم وانفعالاتهم، ويدفعهم للانسياق الذهني والتجارب العاطفي أو السلوكي مع المواضيع والعوالم الخيالية التي يمثلها لهم من غير اشتراط أن تكون صادقة أو كاذبة.

ما يشير إليه حازم هنا، يكتسي أهمية نظرية كبيرة؛ لأنه يخرج الصدق والكذب من طبيعة الشعر جملة، ويركز على القيمة الفنية للتخييل وعلى وظيفتيه النفسية والجمالية، ولأنه يرى أن على التفكير النقدي في القصيدة أن يتجاوز النظر في مدى صدق التخاييل والمحاكيات التي تتضمنها وتشكلها. وأن يتجه بالأحرى للبحث في " موقعها من المتلقي وتأثيرها في انفعالاته، وقدرتها على توجيه سلوكه، طالما أن الغرض النهائي من الشعر هو التأثير الموجه للسلوك".

وتكمن قيمة هذا التصور الذي تبناه حازم، في أنه يحسم الصراع الذي دار بين أنصار الصدق أو الكذب في الشعر، لصالح الغاية التخيلية للعملية الشعرية، ولئن كانت أصوله تعود إلى الفلاسفة المسلمين، الذي أدى تصنيفهم للشعر، ضمن فروع المنطق، إلى تخليصه من إسار النظرة التي كانت تقوم العوالم الفنية والمعاني الإبداعية، التي يخترعها باعتبار صدقها أو كذبها، لئن كان الأمر كذلك، فإن حازما لا يكتفي بعرض تصور الفلاسفة المسلمين، بل

إنه يغنيه بموقف آخر يتمثل في النظر في مادة التخاييل والمحاكيات الشعرية، وبحث طبيعة المعاني التي تنطوي عليها ونوعيتها من زاوية صدقها في تمثيل ظواهر الواقع المادي أو كذبها في ذلك. وقد حاول حازم أن يخرج هذا السؤال من دائرة البحث النقدي، إلا أنه وجد نفسه ملزما بالإجابة عنه "لأن التخييل وإن كان يهدف إلى التأثير لن يفصل عن مادة تؤدي إليه، وموضوع يساهم في تحقيقه ولا مفر من البحث في قيمة مادة التخيل وموضوعها، من حيث كونها صادقة أو كاذبة".

فالصدق والكذب قيمتان تلازمان الطبيعة التمثيلية للتخييل وتحددان أسلوبه الإيحائي؛ "لأن الشيء قد يخيّل على ما هو عليه، وقد يخيّل على غير ما هو عليه"، والمطلوب هو الإحاطة بمناحي وقوع كل واحد منهما في الأساليب الشعرية، ومعرفة الطرق والصيغ المناسبة لاستعمال أحدهما أو كلاهما في صياغة الصور الفنية حتى تكون أكثر جمالا وأشد تحريكا للخيالات وتأثيرا في النفوس. وفي هذا الإطار يرى حازم أن الكلام الشعري ينقسم بالنسبة إلى الصدق والكذب ثلاثة أقسام رئيسة، يوضحها بقوله: "إن الأقاويل الشعرية منها ما هو صدق محض، ومنها ما هو كذب محض، ومنها ما يجتمع فيه الصدق والكذب".

أما بالنظر إلى الطرق المناسبة لوقوع الصدق والكذب في الشعر، فيشير حازم إلى أن ثمة خمس جهات لكل واحدة موقعها الخاص والملائم في عملية التمثيل الفني؛ إذ يقول: "إن الشعر له مواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الصادقة، ومواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الكاذبة، ومواطن يصلح فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال الصادقة أكثر وأحسن، ومواطن يحسن فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال الكاذبة أكثر وأحسن، ومواطن تستعمل فيها كلتاهما من غير ترجح فهي خمسة مواطن، لكل مقام منها مقال". فالشعر يكون صادقا حين تتماثل المعاني والأحكام الخيالية التي تتضمنها صورة الفنية مع الحقيقة العينية للموضوع المادي الذي يشتغل عليه، ويتجلى هذا النمط من التخييلات في الأشعار التي تصف الظواهر والأشياء المادية، وصفا مباشرا مطابقا لخصائصها الطبيعية

وسماتها الحركية، أي في الأغراض الشعرية التي تروم أساليبها التصويرية تحسين صور الأشياء الحسنة، أو تقبيح صور الأشياء القبيحة يقول في هذا المعنى: " فأما إذا قصد [الشاعر] تحسين حسن وتقبيح قبيح، فإنه متمكن من القول الصادق والمشهور فيهما.

وأكثر أقوال الشعراء في هذين القسمين، إذا لم يقصدوا المبالغة في ما يحاكونه ويصفونه صادقة".

كما تكون أيضا الأشعار الصادقة، تلك التي تصف الأشياء بطريق غير مباشر، فتحاكيها بغيرها من الأشياء المقاربة لها في الطبيعة المادية والخصائص الحركية، وذلك بغاية إبراز جمالها إن كانت جميلة، أو قبحها إن كانت قبيحة، ويرتهن الصدق في هذا النمط من الصور الشعرية بلزوم الاعتدال في الوصف؛ حيث إن على الشاعر ألا يخرج من إطار تقرير المشابهة والتماثل بين الشيئين موضوعي المقارنة، إلى ادعاء اتحادهما وتساويهما في درجة الوجود وطبيعته، بل لابد له أن يضمّن محاكاته قرينة لفظية أو معنوية تبقي تمايزهما واضحا في مخيلة المتلقي، يقول حازم موضحا هذا الأمر :"... وكذلك أيضا إن اقتصد في محاكاته بغيره واقتصر به على المشابهة دون الغاية التي يطمح فيها عن محاكاة الشيء بالشيء إلى قول هو هو، وفرق بين قولك في الشيء: إنه الشيء الآخر، وبين قولك: إنه مثله وشبهه، إذا لم ترد في نفسك معنى التشبيه، وتكون قد حذفت الحرف الدال عليه إيجازا، بل أردت أن يصير به اثنينية شيئين اتحادا. وهذا يكون في المشابهة وغيرها ... فما وقع من الأوصاف والمحاكاة مقتصدا فيه غير متجاوز فهو قول صدق، فإذا قيل في الشيء: إنه كالشيء، وكان فيه شبه منه، فهو قول حق، لأن الكاف وحروف التشبيه إنما وضعت لأن تدل على الشبه من حيث إنه موجود، أقل أو أكثر، لا من حيث الكمية؛ فقد يقوى الشبه ويضعف وتكون المحاكاة مع ذلك صادقة إلا أنها في أحد الحالين أوضح ".

فأما الكذب فإنه يقع في الشعر حين يمحو الشاعر الفواصل المنطقية والطبيعية القائمة بين الأشياء والظواهر المتنافرة والمتباعدة في الحس، فيقارب بينها بأسلوب يوهم باتحادها وتطابقها

في جميع الصفات، ويندرج هذا النمط في سياق أسلوب تصويري شامل يتميز بالإيغال في الوصف والمحاكاة، حيث يقلب فيه الشاعر مظاهر الأشياء وخصائصها المادية، فيمثل ما هو حسن بصورة قبيحة، وما هو قبيح بصورة حسنة.

يقول حازم في هذا الشأن: "لكن الشاعر يضطر حيث يريد تحسين قبيح أو تقبيح حسن أو تتميم ناقص بالنسبة إلى ما يراد منه بالمبالغة في وصفه لتزيد النفوس زيادة الوصف تحريكا، فيستعمل حينئذ الأقاويل الكاذبة وما لا يوقع الصدق كما يستعمل الحوشي والعامي من الألفاظ مضطرا في ذلك، أو مسامحة للفكر في ما يقتضيه من المعاني أو يجتلبه من الألفاظ عفوا دون كد؛ أو لأن يرى بعض الأحوال المقدرة التي يتخيلها أهز من الأحوال التي وقعت له، فيبني قوله على الحال المخيلة الممكنة دون الواقعة، ليكون الكلام بذلك أشد موقعا من النفس وعلوقا بالقلب".

فالاستدراك في قول حازم هذا، مرتبط بالاضطرار وناتج عنه، كما تدل على ذلك عبارة لكن الشاعر يضطر"، وهذا الأمر محكوم كما يتضح من نهاية النص بطبيعة الإثارة الجمالية التي يتوخى الشاعر تحقيقها، وبعبارة أخرى فالغاية الأساسية للشعر تظل هي تحريك خيالات المتلقين ودفعهم إلى التفاعل النفسي والوجداني مع المواضيع الفنية والمعاني الإيحائية التي يتضمنها، ولذلك فحين لا تسعف الشاعر معطيات الواقع المادي وظواهره المشهورة والمحدودة، بتمثيل معناه الخيالي وبتشكيل رؤيته الجمالية، فإنه ينزاح عن هذا الواقع، ليخلق أشياء جديدة، ويتخيل حالات نفسية، وأشكال مادية مغايرة للمألوف، وتنطوي على طاقات إمتاعية وقدرات تأثيرية بديعة وعميقة.

وقبل تناول الموقف النظري الذي ينطوي عليه هذا التصور تجدر الإشارة إلى أن حازما لا يرى أن الكذب الفني يقع في الشعر كلما دار كلامه على تحسين قبيح أو تقبيح حسن، فقد يكون الشاعر صادقا في ذلك أيضا: " لأن كل شيء حسن يقصد محاكاته و تخييله، وإن كان

أحسن ما في معناه، فقد يوجد فيه وصف مستقبح. وكذلك الشيء القبيح، فإنه وان كان لا أقبح منه، قد يوجد فيه وصف مستحسن".

لكن حازما لا ينكر مع ذلك، أن حيز الكذب في الشعر أكثر اتساعا من حيز الصدق فيه، لأن التخييل باعتباره جوهر العملية الشعرية يقترن التمثيل الفني فيه بالإيهام والاحتيال، ويقوم عليهما، وبواسطة ذلك يتمكن من دفع المتلقي إلى التوهم بأن شيئا ما يحمل صفات وملامح شيء أخر مغاير له في الطبيعة المادية والخصائص الحركية، وهذا الأمر لا يقتصر على الكذب وحده، بل يشمل أيضا الأقاويل الشعرية الصادقة التي يفرط فيها الشاعر في الوصف، لأن الشاعر يحتاج فيها لكي يكون قوله جميلا، ويقع موقعا حسنا في النفوس، أن يضيف إلى وصفه المطابق للموضوع المادي معنى جماليا آخر، وهذا المعنى الذي يضيفه الشاعر لا يكون مرتبطا ارتباطا عضويا بذلك الموضوع، كما أنه لا يحدد حقيقته المادية والواقعية، ولكنه يورده على جهة الاقتران والتمثيل، الشيء الذي يعني "أن الشاعر إذا وصف الشيء بصفة موجودة فيه، فأفرط فيها، كان صادقا من حيث وصفه بتلك الصفة، وكاذبا من حيث أفرط فيها وتجاوز الحد".